بمناسبة احتفالهم بعيد البنجة

الصابئة المندائيون بين تعاليم (الكنزاربا) ومواكبة التطور

تحقيق/ حسين كريم العامل

في الطرف الشرقي من مدينة الناصرية، ما بين منطقتي السيف وبستان الحاج عبود، سكن الصابئة المندائيون على ضفاف الفرات في حي يدعى (محلة الصابئة) واقاموا عام 1964على ضفة النهر، حسبما تقتضي تعاليم الدين (مندى) لممارسة الطقوس واقامة الاعراس والتكريس والتعميد والصلوات.

تاريخهم

يذهب البعض الى ان تاريخ الصابئة المندائيين يرجع الى زمن ما قبل المسيح، ويذهب البعض الآخر الى انهم عاصروا السيد المسيح وانهم اتباع النبي يحيى المعمدان ويقول عبد الكريم سالم عكيلي رئيس مجلس طائفة الصابئة المندائيين في الناصرية.

- ان نبينا يحيى (ع) هو الذي عمد المسيح وان هنالك تشابهاً كبيراً في بعض الطقوس المندائية والطقوس المسيحية، مثل تقديس يوم الاحد والتعميد والكثير من اركان الدين الاخرى، فضلاً عن التوحيد. وتذكر الليدي دراور في كتابها الصابئة المندائيون ان موطن الصابئة المندائيين قبل ظهور الاسلام هو جنوب العراق في ما يسمى (البطائح) وفي ميسان والاحواز، خاصة انهم كانوا يتمتعون تحت الحكم الاسلامي بما يتمتع به اهل الذمة، واخذت منهم الجزية كونهم اصحاب كتاب.

ويكمل السيد عبد الكريم حديثه قائلاً: ان الصابئة هم العرب الاقحاح، وكتب التاريخ تنسبهم الى العرب البائدة (الكنعانيين). وبالتأكيد هم جذور العرب واشار القرآن الكريم الى الصابئة في ثلاث سور هي البقرة والمائدة والحج.

ويذكرهم البيروني بقوله: (كل ما نعرفه عنهم، على كل حال، انهم يعتقدون بالوحدانية وينزهون الله في وصفهم من كل باطل مستعملين في وصفهم صيغة النفي لا الايجاب، أي انهم يقولون: هو غير محدود، غير مرئي، لا يخطئ، ليس ظالماً)

وفي تفسير ابن كثير نقرأ عنهم ما نصه: قال ابو جعفر الرازي: بلغني ان الصابئة قوم يعبدون الملائكة ويقرأون الزبور ويصلون للقبلة. ومثل وهب بن منبه عن الصابئي فقال: (الذي يعرف الله وحده وليس له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً)

ويقول محدثي السيد عبد الكريم عن اصل ديانتهم:

- ان ديانتنا ديانة كتابية وكتابنا هو (الكنزا ربا) الذي يحوي صحف آدم وشيت وادريس ونوح وسام بن نوح وصحف يحيى بن زكريا وتعاليمه ولهذا سمي بالكنز العظيم، وان نبينا هو يحيى المعمدان. وقد اشار فقهاء المسلمين المعاصرين من امثال محمد حسين فضل الله والغروي والسبزواري والخامنئي الى ان ديانتنا المندائية هي ديانة كتابية وتمثل رسالة سماوية، ولاتباعها حكم اهل الكتاب، وعن ما تعنيه كلمة (صابئة) قال:

- ان اصلها جاء من كلمة (صبا) المندائية، ومعناها التعميد والاغتسال في الماء الجاري. وهذا جزء من طقوس التطهير الدينية عندنا. وهذا الرأي الذي اورده السيد عبد الكريم يكاد يكون متطابقاً مع ما ذكرته الليدي دراور وكذلك مع رأي البروفسور نوتري الذي يقول:

- ان الصابئين الحقيقيين الذين كانوا في الجنوب العربي لا علاقة لحران بهم ... وكانوا يسمون بالآرامية بالصابئين من اصل الفعل (صبأ الآرامي) بمعنى يغطس ويتعمد.

ويحدثنا عن جذور الصابئة المندائيين التاريخية وعن تواجدهم في الناصرية السيد مانع شاهين، احد ابناء هذه الطائفة، فيقول:

- ان عهدنا قديم في هذه الارض، وان جذورنا عميقة في وادي الرافدين فنحن سكناها قبل الكلدانيين وقبل اليهود وقبل المسيحيين، وان اجدادنا المتأخرين هم اول من سكن هذه المدينة منذ ان انشأها مدحت باشا عام 1869م وتبلغ نفوس هذه الطائفة في الناصرية نحو الثلاثة الاف نسمة، يتوزعون بين سوق الشيوخ والشطرة ومركز المحافظة، وهم يزاولون اعمال الصياغة والطب والهندسة والتعليم والاعمال الحرفية الاخرى، فقد اتجه ابناء الطائفة بعد انتشار التعليم نحو الاعمال المدنية والادارية كما ان الحرفيين الصابئة غالباً ما يقومون بصناعة الآلات التي يحتاجها مجتمعهم الاجتماعي ومستلزمات الزراعة.

وعن علاقة الصابئة في مركز المحافظة مع الصابئة في الاقضية والنواحي قال:

- ان شعارنا هو (الصابئة المندائيون عائلة واحدة) وبسبب صلات القرابة والدم والدين والروابط الاجتماعية الاخرى، فإن الزيارات بينهم متبادلة والعلاقة اكثر من طيبة.

اللغة المندائية

لغة الصابئة حسب اعتقاد المستشرق والآثاري الالماني نولدكه هي لهجة بابلية، وقال عنها ما نصه: (تنتسب اللغة المندائية نسباً وثيقاً الى لغة التلمود البابلية، فكلتا اللغتين متجاورتان من الناحية الجغرافية، وفي الواقع يمكننا ان ندعي بأن لغة التلمود البابلي كانت تستعمل في بابل العليا وان المندائية كانت تستعمل في بابل السفلى، وهي تمثل الكلام الآرامي في بابل نحو ما يمثله التلمود).

وتتميز الرطنة، وهي اللغة العامية الصابئية، بكونها خليطاً من المندائية والعربية والفارسية حسب رأي الليدي دراور. ويقول الاستاذ مانع شاهين: (ان بعض الحروف العربية تشبه الى حد ما الحروف المندائية، وان اللغتين العربية والمندائية من اصل واحد وهو الآرامية الشرقية). وحدثني السيد عبد الكريم سالم عكيلي عن طريقة تعليم ابناء الطائفة للغة المندائية قائلاً:

- ان القسم الكبير من مفردات لغتنا يتعلمها الاتباع من خلال العائلة، ونحن نقيم في العطلة الصيفية دورات لتعلم اللغة والتعاليم الدينية والطقوس ونطمح ان تكون لنا مدرسة دينية في المدينة تدعمها الدولة لتعليم ابنائنا اصول الديانة واللغة المندائية.

وعن حرية ممارستهم للطقوس الدينية، قال:

- نحن نمارس طقوسنا الدينية بحرية وعلاقتنا جيدة مع رجال الدين المسلمين لكن هناك بعض المضايقات غير المسؤولة من العابثين وغير الواعين. ونحن نسعى لانشاء حوض على نهر الفرات خاص بالتعميد لأن الطقوس المندائية تعتمد بشكل كبير على الماء الجاري لأنه اساس الطهارة والحياة، على عكس المياه الراكدة التي تعني الموت والتعفن ويتعمد الصابئة بالماء الجاري لطهارته، وهو يدخل بشكل اساسي في طقوس الزواج والتكريس ونحر الذبائح.

المندى

ان لفظة (ماندا) ترد بعدة لهجات ايرانية، او في لغات فيها كلمات ايرانية فـ (ماندا) تعني مثلاً في شمال العراق سوقاً داخلياً مسقفاً او بازاراً، وفي (الكوجوراتي) توجد كلمة مندي او مندفا وتعني الظل او الهيكل، وهي مأخوذة من كلمة (مندابا) السنسكريتية. وتأتي كلمة (ما دا) في السومرية بمعنى الارض او السكن.

ويجب ان يكون المندى على الضفة اليمنى من النهر مواجهاً الشمال، كما يجب ان تكون بركته الى الجنوب منه هذا ما يذكره كتاب (الصابئة المندائيون) لليدي دراور في ص53.

وحدثنا عن المندى السيد عبد

- ان المندى هو مكان لممارسة كل الطقوس المندائية كالتعميد والزواج والتكريس والصلوات وقراءة تأتم على ارواح الموتى، ان تسمية المندى جاءت من كلمة (مبندا) الآرامية التي تعني بيت المعرفة كانوا يطلقون على انفسهم العارفين بدين الله الحق.

«زواج في المندى»

وفي اثناء لقائي مع السيد مانع شاهين دعاني لحضور حفل زواج اقيم في المندى، وشاهدت فيه العروسين بملابسهم البيض والكاهن (الترميذه) الذي يقوم بمراسيم الزواج، التي لا تتم الا في ايام الآحاد. وسمعت هناك هلاهل النسوة وتصفيق الشبان، في حين بدأ الكاهن يضرب رأس العريس برأس العروس من الخلف ثلاث مرات ووضعت في وسط المكان صينية الآس والشموع، وقدموا لنا اطباقاً فيها الحلويات وكذلك الخبز والتمر والزبيب. وطلبت من الترميذه سرمد سامي الذي يقوم باتمام مراسيم الزواج ان يشرح لي بعض الطقوس والادعية التي يتلوها فقال:

- ان هذه الادعية والتراتيل هي للاحتفاء بالعروسين، تدعو لهما بالخير والرفاه. وان السلة التي تخلط فيها ملابس المرأة والرجل هي التعبير عن الحياة المشتركة، وان وجود طبق الخبز هو دعوة للاستمرار في الحياة اما عن اختيار يوم الاحد للزواج فلأنه يوم مقدس وتأتي قدسيته من كونه اول ايام الاسبوع في التقويم المندائي.

وعن سبب اختيار اغصان الآس لصناعة الاكاليل المقدسة، قال:

- اختير شتلة الآس لكونها دائمة الخضرة ومتوفرة في كل الفصول وذات رائحة زكية. ويدخل الآس في طقوس الزواج والوفاة على حد سواء.

وسألته عن سبب كراهية الصابئة للون الازرق فعزا ذلك الى بعض الصابئة وقال ان اللونين الاسود والازرق هما لونا الحزن والموت عند الصابئة، وعموماً هذه الالوان غير مستحبة عندنا وان اللون

الصابئة والسمك

حينما سألت الاستاذ مانع شاهين عن علاقة الصابئة بالسمك اوضح لي ان ولع الصابئة بالسمك قديم وذلك لقرب الصابئة من النهر والماء بحكم طقوسهم الدينية، ولأن السمك لا يحتاج الى طقس ديني خاص مثلما يحدث عند نحر الحيوانات وقال: ان عملية الذبح في ديانتنا تحتاج الى جهد طقسي حسب التعاليم الدينية، ويجب ان يكون القائم على قدر من الطهارة، وغير حاسر الرأس، ويجيد قراءة النصوص الخاصة باستغفار الخالق عن خطيئة الذبح كما يتطلب الامر وجود شاهد على صحة الذبح وعلى الذابح ان يذكر في استغفاره الخالق انه نحر هذا المخلوق ليس لغرض التمثيل به وانما لحاجته الضرورية الى لحمه. وان الشاهد يشهد بذلك.

وسألته مقاطعاً: ان هذا الكلام يشير الى انكم لا تأكلون اللحم الذي يباع في الاسواق فهز رأسه بالايجاب لكنه استدرك بالقول: لسنا متزمتين كما يتصور البعض، فنحن نتمسك بالاساسيات من التعاليم فقط، وان ديننا يتماشى مع الواقع ويواكب التطورات الحاصلة في الحياة اليومية.

الصابئة والسياسة

يذكر الرحالة الغربي بترمان بعد اقامة له في سوق الشيوخ عام 1860 م ان عدد الصابئة كان يقارب الاربعة الاف نسمة فيهم 1500 من الذكور واظهر احصاء 1932 ان عددهم في لواء المنتفك (الناصرية) كان (1731) وفي احصاء 1935 في لواء المنتفك ايضاً كان العدد (1329) . والغريب ان عددهم الآن هو ثلاثة الاف نسمة كما ذكرنا وقد قادني هذا التناقص في الاعداد مع تقادم السنين الى سؤال السيد كامل فعيل حطاب الذي فقد اثنين من شقيقاته في الحملات القمعية للنظام السابق عن السبب، فقال:

- تمتاز طائفة الصابئة بأنها شريحة اجتماعية مثقفة وواعية، وهي تكاد تكون الطائفة الوحيدة الخالية من الامية. وان معظم ابنائها من ذوي الشهادات الجامعية، ووطنيتهم عالية، وحبهم للوطن كبير فضلاً عن انهم لا يؤمنون بسفك الدماء، وهذا نابع من عمق ايمانهم بديانتهم التي تنادي بالمحبة والسلام. وقد قدمت الطائفة في الناصرية اكثر من عشرين شهيداً من خيرة ابنائها على مذبح الحرية.

وقد بلغت نسبة المهاجرين بسبب القمع والظروف الاقتصادية اكثر من 60٪ وتعد هذه اكبر هجرة في تاريخ الطائفة. وان الاحداث التي جرت بعد عام 1991 كانت السبب الاكبر في هجرة العديد منهم.

* وهل عاد احد منهم بعد سقوط النظام؟

- كلا لم يعد احد لحد الآن، وان الذين جاءوا بزيارات لتفقد ذويهم، عادوا بعد فترة قصيرة من حيث

اعياد واحتفالات

الكرصة عند الصابئة مدتها 36 ساعة متواصلة تبدأ من اخر يوم للسنة المندائية مع مغيب الشمس الى صباح اليوم الثاني من السنة الجديدة، يقول السيد عبد الكريم سالم رئيس مجلس طائفة الصابئة في الناصرية: انها بداية العيد الكبير عندنا، اما البروانايا (البنجة) فتدعى الايام البيض عندنا، وهي ايام خلق العالم العلوي، وتكون فيها احتفالية تعميد لكل الصابئة بالماء الجاري، وتقام كذلك في هذه الايام الوجبات الطقسية (اللوفاني) على روح المتوفين، وتشمل تقديم اللحم والسمك حسب قدرة اهل المتوفى المادية، وهي غير مقيدة. والتقويم المندائي يعتمد على دورة القمر وليس الشمس وتقول الليدي دراور عن البنجة ما نصه: (هذه الايام الخمسة الكبيسة بروانايا او البنجة تعد اسعد ايام السنة على الاطلاق، وفيها يقام اكبر عيد عمادي نهري.. والبنجة احتفال ديني اكثر مما هي عيد) . وكذلك هنالك عيد صغير اخر يسمى (دهفة حنينة) او (دهفة طرمة) اي عيد الازدهار الدينية يوم واحد فقط تقام فيه مراسيم التعميد وقراءة الادعية واقامة الافراح. تستمر الاحتفالات الاعتيادية يومين اخرين لغرض التزاور.

طور الصبّي

اختص الصابئة بطور غنائي ريفي يتسم بالشجن الجنوبي الجميل المطعم بالحزن يقول الباحث حسين الهلالي: ان طور الصبي يسمى بهذا الاسم نسبة الى طائفة الصابئة، وقد غناه من الصابئة المغني (حربي سباهي) المولود في قضاء سوق الشيوخ.

وغناه من الناصرية المرحوم جبار ونيسة وابنه ستار جبار، والمطرب حسين نعمة، والمرحوم فتاح حمدان. وافضل من اداه المرحوم رياض احمد. واضاف الاستاذ حسين الهلالي قائلاً: (ان لأبناء هذه الطائفة مجالس عامرة للغناء، وكثير منهم شعراء يجيدون الابوذية وشعر القريض، وهم يشاركون مع المبدعين الآخرين من الطوائف الاخرى، ولهم مساجلات شعرية كثيرة في هذا المجال.

اما اول من غنى هذا الطور فهو روحي الشعلان من صابئة سوق الشيوخ، كما يذكر ذلك الاستاذ ناصر عبد الحسين، ويورد في ذلك قصة طريفة لا يتسع لها المجال لذكرها.

مستعمرات كبيرة.

في ( )

مستعمرات كبيرة

وأحلام صغيرة

محمد الحمراني

مع اختفاء اجهزة الرقابة والاجهزة التفتيشية الاخرى في دوائر الدولة، ظهر الكثير من الارتجال والتجاوز طال كل شيء. وعلى الرغم من ان (صدام) جعل اجهزة الرقابة تقوم بأفعال بشعة ما زالت عالقة في اذهان الكثيرين، ومنها ضرب الباعة المتجاوزين على الارصفة ومصادرة بضائعهم وتحطيمها وشن حملات اعتقال على الكثير من الباعة في اسواق بغداد الشعبية ولذلك فإن البعض لا يرغب بعودة هذه الاجهزة الرقابية لاعتقاده بأن السلوكيات نفسها ستعود.

وفي الواقع اننا جميعاً بحاجة ماسة لعودة الاقسام الرقابية في وزارة الصحة او التربية او البيئة وفي دوائر البلدية والكمارك .. الخ. نعم نريدها ان تعود بلا عنف وشتائم، ولابد ان نستعين هذه الاجهزة بخبراء لديهم برامج ولديها بحوث ميدانية، تهدف مثلاً الى اقامة اسواق عصرية لا تشبه المستعمرات التي تنتشر في بقع مختلفة من البلد، وتولد شبكات اخطبوطية تبدأ بباعة الفواكه والخضر وتنتهي بسوق الاختام ومعاملات التزوير وباعة غرف النوم والخرف..! قبل ايام شاهدت قطعة قماش بيضاء في منتصف شارع عام كتب عليها (هنا كراج سيارات) وقد ادى تجمع الكثير من السيارات في هذا الشارع الى عرقلة السير، واعتقد بأن صاحب اللافتة اعتبر الشارع جزءاً من املاكه وهذا ينطبق ايضاً على صباغي الاحذية وباعة (جنابر الحاجة بربع) وبقالي الارصفة وباعة الصحف واصحاب الكشك وبيوت ما بعد الدكتاتورية. ان هذه الظواهر وغيرها ليست بغريبة على كل من يتجول في شوارع بغداد. وهنالك ما هو اسوأ وربما اخطر، ومثال على ما اقول مطاعم الطرق الخارجية وما تقدمه من وجبات طعام تراعي مزاج واخلاق صاحب المطعم! فمنهم من يقدم الدجاج التالف والآخر يبقي الرقائق بجوار غرفة الطبخ.

في عهد رقابة صدام القمعية كنا نسمع بين حين وآخر عن اغلاق مطاعم استخدمت لحوم حمير او قطط ولا نعلم الآن اي اللحوم يأكلها المتنقلون على الطرق الخارجية اما موضوع النظافة فيحتاج الى مكان آخر للحديث عنه.. وهناك مشهد كراجات بيع السيارات (التنفيست)، وهذه الكراجات بدأت تنتشر وفق مزاج الباعة وفي امكنة هم يحددونها.. انها امثلة بسيطة وهناك من الكلام ما يملأ الصفحات، امام المسؤولين في الدولة والوزراء مسؤولية كبيرة وضرورية في بناء اجهزة رقابية لا تعتمد (التوريق) والعلاقات العشائرية والحزبية.. لإنقاذ الكثير من الظواهر السلبية التي انتجتها الحاجة والضغوطات الاجتماعية على كاهل الانسان في بلدنا.. ان الرقابة في الكثير من بلدان العالم تعتبر اداة لتوفير الحرية، لأنها لا تتسامح مع المصالح الشخصية، وهنا تكمن اهميتها وضروريتها في المرحلة القادمة.